الفصل التاسع والعشرون

في الرحلة العلمية جهة القرنه وما حولها

فإذا تركنا الجهة الشرقية وقطعنا النيل ونحونا نحو الغرب قاصدين قرية القرنة التي هي النصف الغربي من مدينة طيبة و بينها وبين قرية الأقصر نحو الساعتين أو الساعة حسب أيام الفيض والتحريق فأول ما نري بها معبد القرنة الواقع في نهايتها الشمالية بالقرب من طريق بيبان الملوك وهو من بناء سيتي الأول إبن رمسيس الأول وأبى رمسيس الثاني بناه لأحياء ذكر أبيه بعد موته وكان بناؤه مدة بنائه معبد العرابة المدفونة وجعل وضعه غريبًا مثله وكان شيد له أبراجًا كباقي المعابد لكنها أزيلت الآن كلية ولم يبق من أثرها غير بعض أحجارها المطروحة هناك وهذا المعبد يقرب من أن يكون مصطبة جعله بانيه لإجتماع أقاربه وذويه في أعيادهم ومواسمهم وكان من عادة القوم أن يجعلوا في كل مصطبة بئرًا لدفن موتاهم بها خلافًا لهذا المكان لأن قبر الملك في بيبان الملوك بعيدًا عنه وقال بعضهم إنهم فعلوا ذلك لتكون جثة الملك رمسيس الأول بمعزل عن الأحياء من رعيته لعلو شرفه حيًا كان أو ميتًا.

ومتى دخل الإنسان من الباب الوسط في فسحة الستة أعمدة وعبر إلى الرواق الثالث جهة اليمين رأى على أحد الجدر صورة الملك سيتي الباني لهذا المعبد ورأسه متقنة الصنعة جدًا كأعظم صورة لها بمعبد العرابة والظاهر أن هذا الملك مات ولم يتمه فجاء إبنه رمسيس الثاني وأتم ما بقى به وجعله تذكارًا لأبيه سيتي الذي جعل ما بناه تذكارًا لأبيه رمسيس الأول كما ذكرنا ثم نترك هذا المكان ونقصد الفرجة على معبد الرمسيوم فنسير على الخط الفاصل ما بين الأرض الزراعية والصحراء بحيث يكون كل من ذراع أبي النجا والعصاصيف ومقابر الشيخ عبدالقرنة عن يميننا وكان هذا المعبد يدعى سابقًا بإسم سراى ممنون أو قبر أوزيمندياس والذي سماه بإسم الرمسيوم هو شمپليون الشاب الفرنساوي عند سياحته بمصر وبقى هذا الإسم علمًا عليه إلى الآن أما الباني له فهو رمسيس الثاني إبن سيتي الأول السالف ذكره وهما من ملوك العائلة التاسعة عشرة بدليل أنك ترى إسمه منقوشًا على أغلب جدرانه وأصل الفكرة في بنائه هي أصل الفكرة في بناء معبدالقرنة بمعنى أنه جعله مكانًا لإجتماع أقاربه به بعد موته وجعل له أبراجًا نقش عليها بعض مآثره وقد طاحت الأيام بمحاسنها وهدمت أغلبها ونقوش البرج الأول منها قد لبست ثوب

البلى بحيث لا يمكن مشاهدتها إلا في ساعة معلومة من النهار أعني متى كانت أشعة الشمس مائلة على سطحه وجميعها تدل على أغرب وقائعه الحربية في بلاد الشام فتراه مصوّرًا كأنه بجوار نهر يدعى «أورونتو» وهو شاهر سلاحه يقاتل أمة الخيتاس «الهيثيين» ومن تحزب معهم على قتال مصر وكانت هذه الواقعة بقرب مدينة «كدش» وترى في الرسم أن جميع عساكره المصرية ولت الفرار خوفًا وجبنًا من لقاء العدو فثبت هو بمفرده فإحتاط به العدو وأخذ عليه جميع الطرق فإندفع بعربته وسط عرباتهم وقتل رؤسائهم بيده بدليل ما هو مذكور هناك «المقتولون هم رؤساء أمة الخيتاس الحقيرة» حتى قنط العدوّ من النصر وولى مدبرًا وقطع النهر المذكور وهو في خبال طائش العقل كل ذلك وجنده بعيد عنه متفرقون في الأودية لا يعلمون بشيء من هذا وتراه في جهة أخرى قد إقتحم الهيجاء وخاض الصفوف وهجم على الجموع بمفرده وإلتحم معهم في القتال وقد إحتد بالغضب ففرق جمعهم وبدد شملهم وإندفع بعربته فداست خيله الأعداء بسنابكها وهرس العجل كثير منهم فصارت الأرض مستورة بالقتلى بعضهم مطعون بحرابه وبعضهم مرشوق بنباله وبعضهم وثب إلى النهر فغرق به وتراه في جهة أخرى جالسًا على كرسيه وقد عاد له ضباط جيشه الذين كانوا تخلوا عنه وقت الكفاح ليهنئوه بالسلامة فقابلهم بالملامة والتعنيف وأسمعهم الزجر والتوبيخ وهاك بعض عبارته «قد أخطأتم جميعًا في التخلي عني وأنا بين الأعداء وحدي أساجل لفيفهم وأطارد ألوفهم وما رأيت أحدًا منكم أشدد به أزري أو يشركني في أمري ولو لم يثبت قدمي لكان عدمكم وعدمي» إلى آخر ما قال.

«وقد سبق ذكر هذه الواقعة عند ذكر أبراج معبد الأقصر» أما البرج الثاني من هذا المعبد فلم يبق منه إلا بعض أطلال كأنها منصوبة بالقدرة على أساس قد ركع بناؤه وسجدت أركانه ورهنت جدرانه وهو باق على هذه الحالة من أيام الحملة الفرنساوية بمصر لأنهم رسموه في مدتهم كحالته الراهنة وها هي علماء الآثار تنذر كل يوم بسقوطه وكان يتوصل منه إلى رحبة محاطة بأعمدة مربعة مرتكز عليها صورة رمسيس المذكور متصف بأوصاف أوزيريس بمعنى أنه مات وحنط فمن ذلك يعلم أن هذا المكان كان عنوانًا على العبرة بالموت وما يؤل إليه الإنسان بعد النعيم في حياته وكان أمام البرج مما يلي الشرق صنم هائل وهو أكبر جميع الأصنام التي أخرجتها يد الصناعة المصرية من صخرة واحدة من الجرانيت لأن طوله يبلغ سبعة عشر مترًا ونصفًا وثقله نحو واحد مليون ومائتين وسبعة عشر ألفًا وثمانمائة وإثنين وسبعين كيلوغرامًا أعني ألفًا ومائتين وثماني عشرة طونولانه وهو على صورة رمسيس المذكور لكنه تكسر ولم يبق منه إلا بعض أجزائه

وتشوه وجهه ومتى رأى الإنسان هذا التمثال الهائل إندهش به وجالت جيوش الحيرة في عقله وقال وهو متعجب كيف قدر القدماء على مسايرة عمل هكذا فما أصدق صبرهم وأقوى عزمهم وأقدمهم على عمل

كل مستحيل عند غيرهم ويا للعجب كيف قطعوه من مقطعه بأسوان وأي قوة نقلته إلى هذا المكان وما كان الغرض من ذلك هل أعدوه لتزيين هذا المعبد أم لشهرة الملك بانيه أم للمباهاة بقوتهم لمن يأتي بعدهم أم لإظهار حسن صنعتهم في تناسب الأعضاء ثم العجب أيضًا من القوة التي كسرته وألقته على وجه الأرض.

وفي سنة ١٨٩٢ توجهت لمشاهدته فرأيته مصنوعًا من الحجر الأزرق ومطروحًا على ظهره كأنه صخرة هائلة أو كتلة من الجبل فوقفت بجواره ورفعت يدي صوب كتفه فكان بينهما نحو متر ثم تسلقت فوقه ووقفت على رقبته ونظرت إلى الأرض فرأيت بيني وبينها نحو مترين ونصف وهو سمك جسمه لا عرضه كما لا يخفى ورأيت طول أذنه تقرب من متر.

وترى على الناحية التي كان مرتكزاً عليها هذا التمثال كثيراً من الوقائع التاريخية منها واقعة حربية كانت مع هذا الملك و أمة الخيتاس أيضا وهو بوسط الأعداء وهم محدقون به وقد نشر الرمم على الأرض وفيهم سائس خيل ملك الأعداء المدعو) جرابالتوزا (وقائد عساكر رماتهم المدعو) ربسوتا (وقد أصابه سهم فوقع على الأرض يجود بنفسه والأعداء تشتتت وقصد بعضهم نهر) أورنتو (السالف ذكره وهم منهزمون فألقوا أنفسهم فيه وترى على الشاطئ الآخر منه أحد رؤساء العدوّ كأنه غرق ونشلوه إلى الساحل وقد امتلأ ماء فنكسوه بجعل رأسه أسفل و رجليه أعلى لبقئ الماء الذي دخل جوفه وغير ذلك مما لا يمكننا حصره في هذا المختصر .وبالجملة فيه كثير من الوقائع الحربية والعبادات ومعبودات طيبة والملك أمامهم يتقرب إليهم بأنواع العبادات وفيه قوائمها أسماء العائلة الملوكية من رجال ونساء ثم لوحة فلكية وفي آخر هذا الأثر رحبة بها أعمدة وتيجانها على هيئة أزهار ذابلة تفوق بلطفها تيجان الأساطين الضخمة التي برحبة أعمدة معبد الكرنك فإذا عملنا ذلك يممنا صوب طودي ممنون اللذين أجمع علماء الآثار على أنهما كانا أمام برجين لأحد المعابد ولم يبق الآن منه ولا منهما أثر ولا عين وأخذت أحجارها فحرقت وتحولت إلى جير وعميت مواضعها وصارت أرضاً زراعية أما التمثالان فالسبب في بقائهما هو عدم صلاحية حجرهما لعمل الجير لأنه من الصوان المشوب بالزلط العقيق الغير صالح لذلك ويستنتج

من فخامة منظرهما وجلالة هيئتهما أن المعبد كان غاية في الحسن وإتقان الرونق بقدر مالهما من العظمة وطلاوة الهندام وجميعها من عمل أمونوفيس الثالث) أمنحتب من العائله الثامنة عشرة .(و لاريب في أن تدميره حرم تاريخ مصر من فوائد مهمة كانت توضح لنا أيام الملك بانيه المعدود فحول ملوك مصر وتزيد تاريخه ظهوراً وكل واحد منهما جالس على قاعدة حجرها من نوعه بحيث يتصور للرائي أنها حجر واحد وارتفاعهما يبلغ 19,60 متراً وقال ماريت باشا أن هذا الإرتفاع يعادل إرتفاع أعظم منزل بمدينة باريزيكون به خمس طبقات مركبة فوق بعضها فإذا طرحنا إرتفاع قواعدهما بلغ طول كل واحد6, 15 ٠ متراً وقد غاصا في الأرض نحو ١,٩٠ متر وهما على صورة

الملك المذكور وهو جالس على تخت ملكه أما التمثالان الصغيران المرتكزان على القاعدة فأحدهما صورة أمه والآخر صورة زوجته وأشتهر الصنم الشمالي في الأزمان السالفة بأسم طود ممنون ودوت هذه الشهرة عند اليونان والرومان وقصده السائحون من كل مكان إلى ما بعد إستيلاء رومه على ملك مصر بنحو قرنين وسبب ذلك أن هذين الصنمين كانا معروفين بأسم صنمي أمونوفيس الثالث إلى السنة السابعة والعشرين قبل الميلاد فصلت زلزلة شديدة خر منها الجزء الأعلى من التمثال الشمالي وصار مطروحاً على وجه الأرض الأغبر منبوذاً بالعراء الأقفر منزوياً في زوايا النسيان لا يعبأ به انسان وبينما هو على هذه الحالة إذ ظهرت منه حادثة عجيبة هرع إليها الناس من كل مكان وهو أنه صار يسمع منه عند طلوع الشمس صوت طويل ممتد فتزاحموا على سماعه وقصده الناس على إختلاف طبقاتهم ولما سمعوا طنينه وشاهدوا رنينه صار كل منهم يهرف بما لا يعرف ويقول ما لا تقبله لعقول ثم إتفقوا أخيراً على أن هذا الصوت وأنين ممنون يسلم على أمه المسماة) أورور (أي الفجر .وفي القاموس الفرنساوي أن ممنون هو شخص خرافي كان اليونان يعتقدون صحة وجوده حتى قالوا انه إبن تيتون ملك مصر بلاد أتيوبيا وأمه أورور)الفجر (فأرسله أبوه المذكور لإنقاد مدينة ترواده حينما حاصرها اليونان وضيقوا عليها فتوجه لها وظهرت منه شجاعة وبسالة في حربهم حتى أنه قتل أنتيلوك بن نسطور أحد ملوك اليونان وفصحائهم فجزع لهذا المصاب أخلاوس فارس اليونان وصنديدهم فدعاه للكفاح و إلتحم معه في الحرب وقتله به فشق ذلك على أغلب الممالك ونعته الناس وأقاموا له التماثيل في بلادهم تذكاراً لشهامته في الحرب .ولما بلغ أمه أورور) الفجر (خبر مصرعه ناحت عليه وتوجهت إلى جوتير (كوكب المشتري) أبي الآلهة وهي تسكب العبرات وشعرها مرسل على أكتافها بلا إعتناء وترامت على قدميه وترجته أن يمنح إبنها المقتول ما يمتاز به على سائر الناس فرثى جوبتير لحالها وأجاب

طلبها ولما أحضروا حثة ابنها ممنون للحرق ظهرت منه الخوارق للعادات و كثير من المعجزات غير أن جميع ذلك لم يطفئ لهيب حزنها عليه وصارت تنديه في كل يوم من الفجر إلى طلوع الشمس وترسل عليه صيب دموعها وشابيب عبراتها فدموعها هي الندى الذى ينزل كل يوم على وجه الأرض من الفجر إلى طلوع الشمس .ومن ذلك أتت الإستعارة المستعملة الآن عند الأفرنج في قولهم دموع الفجر) أي الندى (أما الشهرة التي حصلت له بعد قتله فقد أتت من التمثال المشهور الذي نصبه له المصريون في مدينة طيبة.

عاصمة بلادهم بعد قتله حيث كان يسمع منه بعد طلوع الشمس صوت رنان لطيف وهو السلام الذي كان يسديه لأمه التي قامت بفرائض الحداد والحزن عليه هذا ما قاله اليونان في خرافاتهم أما حقيقة هذا التمثال فهو للملك أمونوفيس الثالث اهـ.

وفي دائرة المعارف النمساوية) الأنسكلوبودية (ما ملخصه ممنون هو أبن تيتون ملك بلاد أتيوبيا وأمه الفجر وقتله اخلاوس أمام سور مدينة تروادة أما التمثال المعروف بهذا الأسم فهو للملك أمونفس الثالث و يوجد الآن بأطلال مدينة طيبة بمصر وهو من حجر واحد معدنه مركب من أخلاط كثيرة ومن شأنه أنه متى حصل تغير فجائي في الجو بظهور الشمس حدث من الهواء الذي دخل في مساسه ليلاً صوت رنان فلذا قال القدماء ان ممنوناً هو صاحب هذا التمثال الذي يهدى السلام في كل صباح إلى أمه الفجر اهـ.

والذي حمل اليونان على إعتقاد هذه الخرافة هو أن هذين التمثالين كانا موضوعين في أحد أخطاط مدينة طيبة المدعو ممنوناً وكان المشاع على ألسنة اليونان وقتئذ أن ممنوناً هو الذي بني هذا الخط فلما سمعوا هذا الصوت قالوا ماذكرناه ثم انتشر أمره فأمّه الناس من جميع الآفاق وهرعوا إليه من كل مكان ليسمعوا صوته العجيب و يتأكدوا من سلامه على أمه وقال بروكش باشا أن اليونان كانوا يعتقدون أن ممنوناً المذكور هو إله الليل وابن الفجر وهو صاحب هذا التمثال فلما قتل في ساحة الحرب صار هذا التمثال يئن عليه و ينوح في كل يوم وقت طلوع الشمس أي عند إنتهاء مدة حكمه وهي الليل فقصده الناس ليسمعوا أنينه على صاحبه اهـ .فكانوا يرثون لحاله وينقشون شهادتهم على سيقانه ويضعون عليها أسماءهم حتى أفعموها بالكتابة والشهادات وبقي الحال على ذلك مدة قرنين وأكثر إلى أن جاء القيصر سيتيموس سواريوس الروماني وسمع أنينه وهو مطروح على الأرض فظن أنه لو أقامه وأجلسه على قاعدته كما كان لتغير أنينه بخير منه وسلم على أمه

وهو جالس على كرسيه أولى من سلامه وهو معفر بالتراب فأجلسه وأنتظر سماع صوته فلم يسمعه لأنه أمسك كلية عن السلام أو النوح وسكت إلى الأبد لأن الشرخ الذي كان يخرج منه ذلك الصوت امتلأ بالمونة .ومن تأمل الآن لسيقانه علم من بقايا الكتابة التي عليها كثرة الشهود والزائرين ورأي تواريخهم وخطوطهم مكتوبة باليونانية أو اللاطينية وأقدم شهادة عليها كتبت في زمن نيرون الطاغية قيصر دولة رومة وأحدثها كانت في زمن القيصر سبتتيموس سواريوس وبلغ عدد ماعليها من الشهادات المؤرخة بحكم القيصر أدريان سبعة وعشرين شهادة وذلك غير الشهادات التي لم تؤرخ وأغلبها عبارات نثرية بسيطة منها هذان) أناسا بين أوغسطه زوجة القيصر أو غسطي سمعت مرتين صوت ممنون كل مرة كانت في الساعة الأولى من النهار .(الثانية) أنا وبتالينوس وزوجتي پويلياسوسيس سمعنا صوت ممنون مرتين في شهر بشنس من السنة الثالثة في الساعة واحدة ونصف من النهار اهـ .(وكانوا في بعض الأحيان يكون شهادتهم بالشعر ولها نتعرض لها إكتفاء بما ذكرناه ثم ظهر لعلماء الطبيعة أن هذا الصوت كان ينشأ من رطوبة الليل والهواء البارد الكامنين في شجة فيه عند مقابلهما بحرارة الشمس فأن الهواء يتمدد بحرارتها فيخرج منه فيحدث هذه الطنة ولاشك أن الرنين الذي سمعته في أحجار معبد دندرة هو من هذا القبيل وبالتأمل في الجزء الأعلى منه يرى به بعض تصليحات بأحجار معشقة ليست من معدن حجره تدل على أنه كان سقط على الأرض وتكسر ثم أعيد ثانيا والله أعلم.

ثم نتحول إلى المكان المعروف بدير المدينة فنرى هنالك معبداً صغيراً بناء بطليوس فيلوپاطور)أي محب أبيه (وأتمه خلفاؤه وهو واقع في وهدة من الأرض خلف المكان المعروف الآن بقرنة مرعي .ومن المحقق أن بطليموس المذكور بناه ثانياً بعد إنهدامه لإنه كان موجوداً أيام أمونوفيس الثالث أما الذي أسسه فكان شخص من الأهالي يدعى أمونوفيس أيضا على أسم ملك عصره وكان أبوه يدعى هابو وبعدما أتمه أرصده على معبودة الحق وسماه) حاقاق (وكان من عادة أهل طيبة أن متى أرادوا دفن موتاهم مروا بهذا المعبد ودخلت الكهنة في دهليزه وتلت بعض أدعية كانت على زعمهم تخفف الحساب عن الروح ويرى إسم البانى له في جميع جهاته ويرى في حائط الرواق الجنوبي لوحة بها صورة ما يؤل إليه أمر الروح .وقد جرت عادة الأفرنج الآن أنهم يقصدون هذا المعبد ليشاهدوا اتقان وجهته المحفوظة إلى الآن كأنها بنيت بالأمس وليروا شباكه العجيب المصنوع في الجانب الجنوبي في أحد دهاليزه.